المحاضرة رقم: 02

البنيـــــــوية

1- الدّرس البنيوي ومرتكزاته:

يرتكز النقد البنيوي على دراسة الأدب باعتباره "ظاهرة قائمة في لحظة معينة تمثل نظاما شاملا، والأعمال الأدبية تصبح حينئذ أبِنْية كلية ذات نظم وتحليلها يعني إدراك علائقها الداخلية، ودرجة ترابطها والعناصر المنهجية فيها وتركيبها بهذا النمط الذي تؤدي به وظائفها الجمالية المتعددة".

ومنه فإنّ العمل الأدبي في جوهره لا يرتبط بالسياقات الخارجية كالمؤلف والمجتمع والتاريخ إنما يرتبط بما بدأ البنيويون بتسميته "أدبية الأدب"، أي العناصر التي تجعل النص أدبا، وليس شيئا آخر، حتى يتمكن من أداء وظيفته الجمالية.

إنّ نقطة الارتكاز في البنيوية هي الوثيقة أو النص ولا مجال للأطر السّياقية فـ"البِنْية تكتفي بذاتها ولا يتطلب إدراكها اللجوء إلى أي من العناصر الغريبة عن طبيعتها"، ومن هذا المنطلق فكل ظاهرة بالنسبة للبنيوية تّعدُّ بِنْية، فالأحرف الصوتية بِنْية والضمائر بِنْية والأفعال بِنْية والزمان بِنْية والمكان بِنْية والشخصية بِنْية وهكذا...

لقد أثّرت مجهودات "فرديناند دي سوسير" كثيراً في صقل النظرية البنيوية، فلا شيء يتميز قبل البِنْية اللغوية، وخصائص الجزء لا تعكس خصائص الكُل كمثل ذرة الأكسجين وذرّتا الهيدروجين تختلف طبيعتها عن جزيء الماء (H_2O).

المنهج البنيوي لتحليل النصوص لا يهتم بتبيين جودة النصوص أو رداءتها ولكن يهدف إلى إبراز كيفية تركيباتها والمعاني المنضواة تحت عناصرها وتآلفها في النص.

وبهذا فإن الشكل الأدبي عند البنيويين تجربة تبدأ مع النص وتنتهي معه بقراءة نصية من الناقد.

حسب البنيوية، فإن في النص الأدبي يوجد نسقين ملتحمين هما: النّسق الحسي والمتجسد في الملفوظ وزخرفته وبلاغته ومعماريته، والنّسق الذهني يرتبط بالمعاني وبالتّعمق في فهم الصورة غير مجزأة وبهذا فالنسقين ملتحمين، فالأول انفعالي والثاني معنوي، ومنه فإن الناقد البنيوي يتناول النص كاملا.

2- المدارس المساهمة في قيام البنيوية:

ومن بين المدارس المساهمة في قيام الفكر البنيوي نذكر:

1- مدرسة جنيف اللغوية "فرديناند دي سوسير" (1857-1913): قيامها على الثنائيات: (اللغة / الكلام)، (السانكروني / الديانكروني)، (القياسي / السياقي)، (الصوت / المعنى)، (الدّال / المدلول)

- **المدرسة الشكلانية الروسية (1915-1930):** جمعية (opoyaz) "أبوياز" كانت بمثابة الانطلاقة الرسمية للبحث في مجال الأدب انطلاقا من شكله المتميز الذي جعله أدبا.

3- حلقة براغ اللغوية (بقيادة روسان جاكوبسون) (1928-1938): حاول إحياء أعمال الشكلانيين وبعث الدرس اللغوي وتطويره خدمة للأدب والنقد.

4- جهود "روسان جاكوبسون": في إرساء قواعد البنيوية عن طريق نظرية التواصل وتفعيلها في العملية الإبداعية.

5- مدرسة النقد الجديد: بظهور "حلقة كوبنهانغن" عام 1931 بقيادة "برونذال" و"يمسيلف" و"حلقة نيويورك" عام 1934 في أمريكا والتي أصبحت ملجأ العلماء المهاجرين بعد اندلاع الحرب العالمية (2).

كانت هذه الأخيرة من أخصب الأرضيات لتطور المنهج البنيوي وخاصة مجال الدراسات اللغوية وبرز خلالها "سابير، بلومفيلد، وتشومسكي".

أ.د سعدية بن ستيتي

لقد نهضت البنيوية على أُسس لغوية مستعينة ببعض الأبحاث والدراسات اللغوية خاصة ما قدمه الباحث السويسري "فاردينانند دي سوسير" (Ferdinand de Saussure) حين ميّز بين اللغة والكلام (Langue / parole).

وكان انطلاقها واضحا من خلال البِنْية اللغوية ودراستها في النصوص الإبداعية سبيل إلى الكشف عن جماليات النص الأدبي، فالبنيوية تنهض على فكرة أنه "إذا كانت الأفعال والمنتوجات ذات معنى، فإن ذلك يقتضي وجود نظام تحتي من التمييزات والأعراف التي تجعل هذه المعاني أمرا ممكن التحقق".

بالإضافة إلى جهود اللسانيين اعتمدت كذلك البنيوية على جهود علماء وفلاسفة وأنثروبولوجيين ونقاد وفلاسفة على رأسهم "رومان جاكبسون" (Roman Jakobson) مؤسس حلقة "براغ" والذي قدّم بحوثا معمقة عن مبادئ البنيوية.

لقد كانت الانطلاقة الفعلية للبنيوية كنقد واتجاه فلسفي في الخمسينيات من القرن العشرين، وذلك بعد أن أَفلَتْ الإيديولوجيات، إذْ أضْحت البنيوية رغبة منهجية امتدت إلى مجالات عديدة غير الأدب والنقد.

وبرزت من خلال أعمال "كلود ليفي ستراوس" (C. L. Strauss) من خلال كتابه: "الأنثروبولوجيا البنيوية" (Structural Anthropology) علم 1958م، والذي قدّم من خلاله محاولة مُمنهجة في بحثه عن الأبِنْية العقلية العميقة مثل ما وضحه حول أنظمة القرابة والأبِنْية الاجتماعية، وعن الأدب والفلسفة والأنماط النفسية اللاّواعية التي تُحرّك السلوك الإنساني، وباختصار فإن "ستراوس" نقل النقد البنيوي من المجال اللغوي إلى المجال الأدبي وخاصة عندما حلّل أسطورة "أوديب".

إن النقد البنيوي يعتمد على ما تعتمد عليه بقية العلوم المعاصرة كالرياضيات والعلوم والفيزياء، فهي تحاول تشريح النص الأدبي وإخضاعه للتجربة النقدية وفحصه بِنْية بِنْية وتبحث في تناسق البُنى لِتجد معنى للبِنْية كليةً، أي أنها تعتمد على الوصف الآني للأشياء.

أ.د سعدية بن ستيتي

3- مصطلح البِنْية:

البِنْية هي كل شكل منتظم يمكن إدراكه بالعقل، ويرتبط مفهوم البِنْية في علم الرياضيات بالشكل المبني على التنظيم المنطقي المدرك بالعقل والبِنْية اندرجت من المجموعة ومن مفهوم التأليف بين عناصر هذه المجموعة، إذن: البِنْية انبثقت من مصطلح المجموعة، العنصر، وعلاقة الانتماء والمجموعة هي: "جملة العناصر تربطها رابطة ما، رابطة عبارة عن خاصية مشتركة بين العناصر".

والبِنْية هي نظام أو نسق من المعقولية، وأيضا نظام من الرموز، ولعلّ الأصل التاريخي لكلمة بِنْية هو "الشكل" الذي نادى به الشكلانيين الروس وقد أكد "ليفي ستراوس" هذا قائلا: "إنني أؤكّد على أن البنيوية الحديثة، ومن ضمنها اللسانيات البنيوية، ما هي إلاّ إمتداد للشكلانيين الروس".

فالبنيوية هي ثمرة جهود النقد الشكلاني والنقد الجديد من حيث تأكيدها على أن الدراسة الأدبية يجب أن تكون نصية لاغية كل السياقات. وقد كانت حلقة براغ (Prague) همزة وصل بين الشكلانية الروسية والبنيوية.

3-1- مصطلح البِنْية من الناحية اللغوية:

إن أصل كلمة بِنْية في اللغات الأوروبية هو الأصل اللاتيني "stuere" وهو يعني البناء أو الطريقة التي يُقام بها مبني ما، ومنه انبثق المفهوم ليشمل وضع الأجزاء في بناء ما وفق معمار جمالي تشكيلي.

وكذلك هذا الاختلاف عن دلالة التشييد والبناء والتركيب في الاستخدام اللغوي العربي، ولم تظهر هذه اللفظة "بِنْية" في الكلام العربي القديم، لكن ظهر في القرآن الكريم ما يشتق منها كـ: "بنى"، "بناء"، "بنيان"، و"مبنى".

وقد تصور اللغويون العرب "البناء" على أنّه الهيكل الثابت للشيء، وكان بمفهوم الإعراب، أو التركيب والصياغة، ومن هنا جاءت الصيغة (المبني للمعلوم والمبني للمجهول).

أ.د سعدية بن ستيتي

3-2- البِنْية في الاصطلاح:

ارتبط مفهوم بِنْية في الاستعمال الأوروبي دائما بالشكل الذي يشيد مبنى ما، ثم أصبحت بِنْية تعني تكيّف الأجزاء لتكون كلاً ما سواء كان جسما حيّاً أو معدنيا أو قولا ما، وكذلك تعني التضامن بين الأجزاء.

إذن نصل إلى أن البِنْية هي ما يكشف عنها التحليل الداخلي لكل ما، وتحديد العلاقات بين أجزائها ونوع النظام الذي يحكمها، وبعد ذلك تأتي مرحلة دراسة بنى أخرى، ومن خلال مقارنتها مع قالب البِنْية الأصلي يبدأ تحليل البِنْية.

4- خصائص البنيوية:

تقوم البنيوية على خصائص أهمها: الشمولية، التحول، ذاتية الانضباط.

4-1- الشمولية: وهي تعني إتّساق البِنْية وتناسقها داخليا، وهي تتصف بالكمال الذاتي، فهي تشمل وحدات مستقلة عن بعضها لكن جمعت تعسّفا، وهذه الوحدات هي أجزاء تتبع أنظمة داخلية، هذه الأنظمة تعطي للبِنْية خصائص أشمل وأعم من خصائص الأجزاء المكونة للبِنْية.

ولا يكون للأجزاء قيمة أو معنى إلا في وجودها داخل إطار البِنْية الواحدة وما يحكمها من علاقات داخلية.

4-2- التحول: البِنْية ليست قارة أو ثابتة، بل هي متحركة وفق قوانين تقوم بتحويل البِنْية ذاتها فتصبح بِنْية فاعلة تسهم بدورها في البناء وفي تحديد قوانين البناء، فالبِنْية بهذا تؤثر في تكوين ما تحويه بداخلها من أجزاء كما أنها تتأثر في وضعها في مكان جديد.

4-3- ذاتية الانضباط: وهو انضباط داخلي، أي أن البِنْية لا تُحلّل على أساس تبريرات خارجة عن النص، إنما تبرر وفقا للأنظمة الداخلية للنص.

- البنيوية هي منهج وصفي يرى النص الأدبي عالما مغلقا وله نظامه الداخلي الذي يعطيه وحدته وشموليته، وهو لا يكمن في ترتيب عناصره أو أجزائه، إنما يكمن في شبكة العلاقات

أ.د سعدية بن ستيتي

التي تنشأ بين أجزائه، فراحت البنيوية تبحث عن نمط هذه العلاقات وتحللها لتتفهم وتحدد نظام البِنية.

– وبذلك فالبنيوية جاءت وخرجت عن المحاور التقليدية المتمثلة في الذات والموضوع أو الذات والوجود أو الإنسان والتاريخ.

– والبنيوية ترفض النظر إلى نظام كليّ ما نظرة جزئية بل تنظر إليه وفق شموليته، وأعطت أولوية للنسق أو البِنْية على حساب العناصر (الأجزاء) المشكلة لها.

– كما اعتمدت في عملها على استثمار مقولات أو الثنائيات التي قام عليها الدرس اللساني (الدال/المدلول)، (التزامن/التعاقب)، (الحضور/الغياب).

– اعتمدت البنيوية روح العلمية مما مكنها من منح نقلة نوعية في مجال النقد الأدبي ومجال الفكر والمعرفة. وخير دليل على ذلك أن أعلام البنيوية لم يبرزوا في النقد الأدبي وحسب بل برزوا أيضا في مجالات فكرية متنوعة، مثل "جاك لاكان" الذي برز في الفلسفة وعلم النفس، و"كلود ليفي شتراوس" الذي برز في الأنثروبولوجيا، وكذلك "رومان جاكوبسون" الذي برز في علوم اللسان والنقد الأدبي، ومنهم من تخصص في النقد الأدبي كالباحث الفيلسوف "رولان بارث" وغيرهم...

5- المفاهيم النقدية الممارسة لدى البنيويين:

5-1- اللغة والكلام:

اعتمدت البنيوية على التمييز السويسري بين اللغة والكلام، فاللغة هي مجموعة القواعد والمعايير التواصلية بينما الكلام هو استعمال للّغة بعملية تفعيل لنظام اللغة ويتجسد الكلام في فعليْ النظام والكتابة، فاللّغة هي المادة الممولة للكلام الذي نعتبره تفعيلا للّغة[1].

إن فصل البنيوية بين اللّغة والكلام كان من أجل الدراسة وحسب فكلاهما متكامل، فاللّغة هي الكل والكلام هو الجزء، فاللّغة تمثل السلطة التجريدية المتعالية التي يأخذ منها الكلام اختياراته النفعية وهو تطبيق لها، لذلك فالكلام يتنوع ويختلف باختلاف الأفراد.

5-2- نظام العلاقات:

وقد اعتمدت البنيوية على فكرة العلاقات التي تحكم عناصر البِنْية، فلا قيمة لأي عنصر أو جزء ما لم يوضع في بِنْية وتحكمه علاقات متعددة مع بقية الأجزاء. فقد رفض "ليفي شتراوس" التعامل مع عناصر البِنْية باستقلالية بل ركز على علاقاتها مع بعضها البعض، تماما مثل العلاقات التي تربط الأعداد فيما بينها في عالم الرياضيات. والاهتمام بالعلاقات الداخلية سيقطع الاهتمام بالمسار التاريخي، لأن عمل البنيوية في هذه اللحظة سيكون آنيا وصفيا داخليا.

وبذلك فالبنيوية تعطي أسبقية وأولوية للعلاقات على حساب الكينونة والكُلّ على الأجزاء، فلا قيمة للجزء ما لم تحكمه علاقات مع أجزاء أخرى وفق نظام معين.

وقد استفادت أيضا البنيوية بتوظيف علاقة السّببية ناهلة في ذلك من علوم الفيزياء والبيولوجيا، ذلك أن الشرط الأساسي لمفهوم البِنْية هو أن يتم استنتاجها عقليا.

5-3- التّزامن والتعاقب (السانكروني/الديانكروني):

إنّ التّزامن هو الزمن الذي يحكم الأجزاء المكونة للبِنْية داخل البِنْية وتكون دراسة التزامن ثابتة آنية وصفية داخل إطار النص بعيدا عن كل المتغيرات.

بينما التعاقب يتجسد عندما يتهدم عنصر ما من عناصر البِنْية أو يحدث له خلخلة وهذا ما يُعبر عنه بانفتاح النص على الزمن، فتحدث له متغيرات، ودراسة هذه المتغيرات في عناصر البِنْية ومتابعتها زمنيا يعتبر دراسة تعاقبية، أو تاريخية.

أي أن دراسة التزامن يكون في فترة من الزمن، تكون فيه التغيرات قليلة جدا، بينما دراسة التعاقب يكون بدراسة العلاقات بين عناصر يحل فيها بعضها محل الآخر بمرور الزمن.

وما يوافق التزامن في الدراسات النقدية الأدبية هو العلاقات التركيبية (التتابعية): دراسة نوع العلاقات: تبادلية، تنافرية، تجاذبية...أمّا ما يوافق التعاقب في الدراسات النقدية

أ.د سعدية بن ستيتي

الأدبية هو العلاقات الاستبدالية وهي تبيين مدى الاختلاف بين عناصر أو وحدات البِنْية التي يمكن أن تحل محلها وحدات أخرى.

5-4- الحضور والغياب:

لقد جسدت البنيوية ثنائية (الحضور/الغياب) في البحث في ظاهرة النص باطنه، وقد مثل لنا هذا الاتجاه الباحث "رولان بارث" والفيلسوف "جاك لاكان"، إذ اقتنعا تماما أنه لا يوجد ارتباط ثابت بين الدّال والمدلول، واستعملا مصطلح الإشارة في مكان الدّال، واعتبرا أن الإشارة تمضي مستقطبة مدلولات كثيرة ومنه فهي تمثل حالة حضور والمدلولات الغائبة تمثل حالة غياب.

العلاقات بين العلامات أو الوحدات قد تكون متجاورة أو متنافرة أو متآلفة وكل هذه العلاقات هي علاقات حضور (محور أفقي). أما الاختيار بين هذه العلامات والعلاقات هو علاقات غياب وهي تعتمد على الإيحاء، تقوم علاقة الاستبدال وفق محور عمودي، ولا يمكن استحضار هذه العلاقة بين الحضور والغياب إلا إذا كان القارئ متمكنا مثقفا شديد الملاحظة.

6- مزايا البنيوية:

1- لقد قامت البنيوية على الدرس اللساني الذي يُعنى باللغة وتمظهراتها الوصفية للاعتناء بشكل مباشر بالنص الأدبي وهو رد فعل على المناهج السّياقية التي تدرس النص بربطه بالمجتمع أو النفس البشرية أو بالسيرورة التاريخية.

2- اهتمام الدراسة البنيوية بالمستويات اللسانية (الصوتي، الصرفي، الدلالي، التركيبي...).

3- الدراسة البنيوية دراسة موضوعية تهدف إلى علمنة النص بعيدا عن الذوق الانطباعي.

4- أحدثت تغييرا جذريا في نظرية الأدب من حيث زاوية النظر نحو الأدب على أنه كان قائم بذاته وجمالياته وفنياته تدرس على الصعيد اللغوي.

أ.د سعدية بن ستيتي

5- أكسبت التحليل الأدبي طابعا علميا دقيقا بعزل النص عن محوره التاريخي وإبعاده عن الكتابة التوثيقية (تاريخية، نفسية، اجتماعية)، وأيضا الحد من الأفكار الأيديولوجية التي كانت تجعل النص تكهنات لا يمكن التأكد من صحتها التجريبية.

6- غيرت البنيوية لغة النقد التي كانت سائدة من قبل، وجعلته نقدا يتّسم بالعلمية والموضوعية، بل هو علم كباقي العلوم كالرياضيات والطبيعيات وغيرها.

7- الانتقادات الموجهة إلى البنيوية:

وُجّهت انتقادات لاذعة إلى البنيوية التي استثمرت المنهج اللغوي في تطبيقه في النصوص الأدبية، وبذلك أصبح النقد أسيرا للنموذج اللغوي المعد سلفا.

والنقد البنيوي يعتمد منهجا تعميميا يعجز عن إبراز خصوصيات الأدب و الإبداع ويمحو الطابع الفردي لها، وبذلك يشل فاعلية المبدع والناقد، والمنهج البنيوي يؤدي إلى تحليلات متشابهة وصارمة لا مجال للجمالية فيها.

ولعل أبرز من انتقد البنيوية هما الباحثان الفرنسيان "جان بياجيه" و"روجي غارودي".

من بين الانتقادات الواردة إلى البنيوية نذكر ما يلي:

1- عصر البنيوية قد انتهى وجاوزها العالم إلى ما بعد البنيوية بدليل أن أهم أعلامها تخلوا عنها من أمثال "رولان بارث" و"دريدا" الذي وصفها بالتجريد والاختزالية والثبات الشكلاني.

2- لقد وقعت البنيوية في نفس ما وقعت فيه الشكلانية من قبل وهي إبعاد المعنى والمحتوى من التحليل النّقدي والتركيز على البِنْية اللغوية حتى أصبح النقد مجردا من كل قيم خال من أي تأويلات تبحث عن الدلالات والمعاني.

3- البنيوية ليست علما وإنما شبه علم يستخدم لغة ومفردات معقدة ورسومات وبيانات وجداول متشابكة لا تضيف إلينا شيئا جديدا.

4- البنيوية تجاهلت التاريخ وفشلت في معالجة الظاهرة الزمانية.

5- لا تهتم البنيوية بعلاقة النص بالقارئ وتعطي أهمية بالغة للأنساق اللغوية.

أ.د سعدية بن ستيتي

6- عجز المنهج البنيوي فيما عزم عليه في تحقيق تفسير الأعمال الأدبية من خلال النموذج اللغوي، وهذا ما أكده "جوناثان كوللر" حين قال: "إن باستطاعة اللغة أن تقدم نقطة ارتكاز عامة للنص الأدبي، لكنها لا تقدم منهجا لتفسيره".

إن النقد العربي بحكم تبعيته للنقد الغربي هو مسرح أكثر تأثراً بالسلبيات التي تندرج بعد كل رؤية منهجية جديدة، لذا على النقاد العرب المعاصرين تطبيق ما يتلاءم منها مع النصوص الأدبية العربية.

أ.د سعدية بن ستيتي